المحاضرة الأولى: الإشكال الإستمولوجي في العلوم الإنسانية.

تمهيد: إن الغرض من هذا الدرس ليس التوغل في تفاصيل الإشكاليات المرتبطة بالعلوم الإنسانية، وإنما التأكيد أولاً على الوجود الفعل للإشكال، ثم بيان أهم العناصر التي تؤسس له، ومن ثم بيان الآراء المعاصرة على التي شكلت إمكانات حلول نظرية لهذه الإشكاليات.

- مفهوم العلوم الإنسانية:
- تاريخياً لم يكن هناك اتفاق جامع يمنح هذا المجال من الدراسة مصطلحاً واحداً يجمع بين كل تخصصاته، وحتى زمن أعمال الفيلسوف الألماني كانط، العلوم الإنسانية كانت مندرجة في الدراسات الفلسفية، ولأول مرة مع ظهور كتاب المنطق "لجون ستيوارت مل، ورد مصطلح "العلوم الروحية" للدلالة على الميدان الإنساني الذي يختلف عن الميدان الطبيعي.
- دعا مل إلى ضرورة إتباع نفس المنهج المتبع في العلوم الطبيعية. وفي ألمانيا بقي الأمر على حاله حتى تقريبا نهاية القرن التاسع عشر حيث استعملت مصطلحات عدة للإشارة إلى العلوم الإنسانية منها العلوم المعيارية والعلوم الثقافية (والعلوم الروحية خاصة عند ولهايم ديلتاي بينما في فرنسا تم التمييز بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية.
- بموجب التعدد، أخذت العلوم الإنسانية من جهة موضوع دراستها موضوعاً واحداً الذي بناء عليه يمكن الحديث عن الوحدة والتعدد داخل هذا الميدان الواسع، فإذا كان موضوع العلوم الإنسانية هو "الإنسان"، فإنها تدرسه من جهة اختلافه عن الطبيعية الجامدة والحية. فالقول بأن العلوم الإنسانية هو الميدان العلمي الذي يدرس الإنسان تعريف ناقص لا يفي بالغرض، كون كلمة إنسان تحمل من الدلالات والمعاني لا تفضي إلى وحدة الموضوع. فإذا كانت العلوم الإنسانية تدرس الإنسان فإنها تدرسه من حيث أنه يصدر سلوكات فردية وجماعية بناء على الإرادة وفي ظل شبكة معقدة من القيم تحدد غايات معلنة أو غير معلنة. هذا التعريف يبرز شيئاً مهماً وهو أن العلوم الطبيعية تدرس الظواهر الطبيعية كما هي متجلية خارج الذات، بينما العلوم الإنسانية تدرس الحوادث الإنسانية باعتبارها متصلة بالذات. ولذلك القول بالظاهرة الإنسانية هو من باب غموض المصطلحات. ويرى ديلتاي أن تمتع الإنسان بالإرادة وهو يشعر بالمسؤولية يجعل أفعاله تفلت للتنبؤات كما هو الحال في الطبيعة >> في مملكة التاريخ (المجتمع)، - على عكس

التغيرات التي تجري على مستوى الطبيعة وفقا لنظام آلي يتضمن بالمبدأ كل النتائج اللاحقة. أفعال الإرادة بفضل صرف طاقة وتضحيات تبقى أهميتها دائما حاضرة بالنسبة للفرد كواقعة تجربة، تؤدي إلى التجديد، مما ينجر عنها تطور الفرد والبشرية على حد سواء 1. >>فمادام هناك تجديد وتطور بالنسبة إلى الإنسان والبشرية على حد سواء، فالحوادث الإنسانية لا تعود من جديد ولا تتكرر كما هو الحال في الظواهر الطبيعية.

- الإشكال الإبستمولوجي في العلوم الإنسانية:
- بناء على التعريف المذكور أعلاه، يمكن تلخيص الإشكال الإبستمولوجي الذي يطرح على صعيد العلوم الإنسانية بالصورة التالية:
- إذا كانت الحادثة الإنسانية عن الظاهرة الطبيعية فهل العلوم الإنسانية تستند إلى نفس المناهج والمبادئ التي استندت إليها العلوم الطبيعية؟ وهل الإجابات التي قدمت في هذا الشأن حتى نهاية القرن التاسع عشر مازالت مقبولة؟ ، السؤال الأخير من الإشكال يستلزم ملاحظة أساسية تتمثل في أن الفهم حول الإشكال يتمثل فقط من عرض العوائق أو الصعوبات وبالتالي إتباع منهج العلوم الطبيعية بإجراء بعض التغيرات يؤدي مباشرة إلى جعل العلوم الإنسانية علوما لا تختلف مع العلوم الطبيعية إلا من جهة المنهج، وبالتالي تبقى الأحادية المنهجية سارية المفعول في كلا الميدانين الطبيعي والإنساني، وهذا ما يمكن التماسه في بعض المؤلفات*. ومن جهة أخرى يربط البعض ظهور العلوم الإنسانية بظهور المنهج التجريبي وتوسيعه ابتداء من القرن الثامن عشر على الحوادث الإنسانية، بسبب ما كان يصبو إليه الفلاسفة من موضوعية، لكن لا بد من التأكيد.
- فيما يخص الإرهاصات الأولى للعلوم الإنسانية فإنها ارتبطت مع الممارسة الاجتماعية والحاجات المختلفة التي كانت تحرك النشاط البشري، فعلى سبيل المثال وضع حمورابي الملك البابلي قوانينه منذ 300 سنة قبل الميلاد ولم يكن هناك علماء قانون، ونفس الشيء ينطبق على أنشطة كثيرة كالسياسة والاقتصاد واللغة الخ....
- انطلاقا من الخصائص التي تميز البشرية باعتبارها موضوعا للدراسات الموضوعية، ونظرا للفروق الهامة بين الإنسان والطبيعة، فإنه ومن دون شك لا يمكن إخضاع الحادثة الإنسانية إلى نفس مبادئ ومناهج العلوم الطبيعية، وإلا نكون

- نظرنا إلى الإنسان مثلما ننظر إلى الطبيعة.
- ثالثاً من الأحادية إلى الثنائية المنهجية:
- إن أهم الاتجاهات التي آل إليها المنهج في العلوم الإنسانية حتى منتصف القرن الماضي كان السائد هو أن المنهج الوحيد الذي يصلح لوضع معرفة موضوعية في مجال الإنسانيات هو المنهج الذي صلح في ميدان الطبيعة والأحياء، وهذا يعين أن أصحاب هذا التصور وهم كثر يؤكدون ويطالبون واستعملوا في دراساتهم منهجا واحدا الذي يمكن وصفه بالمنهج الموضوعي أو المنهج العلمي .
- ينطبق هذا في مجال الاقتصاد أو الحوادث الاجتماعية والنفسية ذاك اجماع كان قائما، وصار مبدأ الحتمية هو العمود الفقري لهذه الدراسات بحيث بفضلها يمكن التنبؤ بالحادثة الإنسانية والسيطرة عليها مثلما هو الحال تماما في الظاهرة الطبيعية. وفي هذا السياق يمكن اعتبار ماركس في مجال الاقتصاد، وفرويد وجون واطسن في علم النفس ودوركايم في المجتمع وتوينبي في مجال التاريخ، بمثابة الممثلين الكبار لهذا الاتجاه الأحادي رغم ما توجد من اختلافات في بينهم.
- ومن جهة ثانية ازدهرت دراسات جديدة استنادا إلى منطلقات أخرى غير التي كانت سائدة في الاتجاه الأول، فيحكم الاختلاف بين الإنسان والطبيعة فإنه لا يمكن الاستناد إلى منهج واحد لدراسة الحوادث الإنسانية، وفي هذا الإطار تحديدا يجمع الدارسون على أن الفضل في هذا المنعرج الإبيستمولوجي يعود إلى الفيلسوف الألماني ولهلم ديلتاي الذي صاغ مفهوما كان من اختصاص الفيلولوجيا وهو الفهم. فأصبحت العلوم الإنسانية بعد انتشار أعماله تقوم على منهجي الفهم والتفسير. وفي هذا المضمار يمكن وضع دراسات ماكس فيبر في علم الاجتماع، وبول ريكور في التاريخ والعلوم.

المحاضرة الثانية: غاستون باشلار والعقلانية

- تمهيد : سنحاول في هذه المحاضرة معالجة بعض نماذج فلسفة العلوم المعاصرة، بهدف التأكيد على أنه لا توجد فلسفة علوم واحدة، فمادام العلم في تطور مستمر فنظرة العلماء – الفلاسفة إلى العلم والفلسفة حتما ستتغير، وسيتم التركيز على الأشكال المعاصرة من العقلانية من خلال التعرف على فلسفة باشلار ثم كارل بوبر، وعلى صعيد ظهور وتطور المعرفة العلمية سنتطرق إلى توماس كوهن باعتباره واحدا من العلماء الفلاسفة الذي لا ينكر علاقة التكامل بين العلمي و الفلسفي والدور الذي يلعبه تاريخ العلم في تكريس وبعث المعرفة العلمية.
- العقلانية المطبقة عند باشلار.
- إن معرفة ايبستيمولوجيا غاستون باشلار أو ما يسمى في التقاليد الفرنسية " نظرية العلم " ، تستوجب الاطلاع على مؤلفين رئيسيين لتتكشف لنا أهم الأطروحات التي ميزت فلسفة العلم عند هذا الفيلسوف الفرنسي.
- في معرض كتابه الأول "الفكر العلمي الجديد" الذي أصدره سنة 1934 يعكس بشكل جلي أهم ما تتميز به فلسفته بجانبها، الأول نظرة الفلسفة إلى العلم، والثاني علاقة العلم بالفلسفة، وبالتالي المعنى الذي يتخذه العقل في ضوء تطور العلم المعاصر. فعنوان الكتاب كما هو في مظهره لا يعني ما هو الفكر؟ لان أن العلاقة المتوترة والمعقدة من جهة بين العلم والفلسفة والمشاكل التي يطرحها العلم إن على صعيد المبادئ أو المنهاج تفرض إعادة النظر النقدية في كل هذه المفاهيم التي شكلت الاختلاف بين المذاهب الفلسفية الكلاسيكية.
- يمكن وضع إيبستيمولوجيا باشلار أو فلسفته العلمية كما أكد هو تحت عنوان رئيس فلسفة الرفض" والمقصود بها كما شرح ذلك محمد عابد الجابري:فلسفة الرفض ليست فلسفة سلبية هدامة تلغي سابقات لتفرض نفسها كبديل حتمي وتسقط بالتالي في أحادية فكرية منغلقة تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة كما فعل أصحاب النزعة المنطقية، بل تعني ضرورة إعادة النظر في العلاقات بين العلم والفلسفة من جهة أولى والعقل والعلم من جهة ثانية والممارسة العلمية من جهة ثالثة لتصبح فلسفة منفتحة تسقط

كل المطلقات التي ترسخت سابقا وشكلت كما هو معروف عند "عائقا معرفيا". بهذه المحطات الثلاث يظهر لنا بوضوح المشروع الإصلاحي الذي شكل مجمل فكر باشلار.

- يؤكد الجابري مستندا في كلامه على قوله باشلار نفسه «: إن فلسفة النفي (يعني فلسفة الرفض) ليست من الناحية السيكولوجية نزعة سلبية ولا هي تقود إلى تبني العدمية إزاء الطبيعة بالعكس من ذلك هي بناءة3»

ضمن هذا الإطار لنا أن نفهم بأن العلاقة بين الفكر والصواب أو لحقيقة انقلبت، فلم يعد المهم البحث عن الصواب لأن ذلك لا يسهم في تقدم العلم، فالبحث عن الخطأ هو الضامن الأساسي لأي تقدم علمي»: أن الحقيقة عند باشلار هي شكل من أشكال المعرفة التي لا نستطيع أن نسير على دربها إلا في إطار النظر لعلاقتها باللاحقية.

- مفهوم العقلانية المطبقة:

- إن المشكل الذي أدى باشلار إلى نحت هذا المصطلح هو الخلاف الذي كان قائما بين العقلانيين والتجريبيين حول مسألة علاقة العلم بالواقع وما هي حقيقة العلاقة بينهما؟؟ من المشاكل الأساسية التي تطرق إليها باشلار في كتابه "الفكر العلمي الجديد" قضية ضرورة ممارسة النقد المتواصل للمفاهيم العلمية مهما كانت،

- يسقط باشلار الكيفية من حساباته مسألة المعرفة المطلقة الصالحة لكل زمان ومكان، فالعقل ليس جاهزا تاما من حيث تكوينه وتركيبه، والواقع ليس كما يبدو لنا، فالمعرفة العلمية هي التي تنشأ وتتشكل عن طريق الملاحظة وتدخل العقل، وهنا يؤكد على مسألة بالغة الأهمية تتمثل في التكامل بين العقلي والواقعي «فالتجربة تحتاج إلى عقل، والعقل يحتاج إلى تطبيق»، ولهذا لا يمكن الفصل حسب باشلار بين ما هو تجريبي وما هو عقلي، إن المعرفة بطبيعتها تجريبية وعقلية معا، وكل معرفة عقلية تتضمن عنصرا من التجربة وفي كل معرفة تجريبية توجد مبادئ وأفكار عقلية. فالعالم الذي يجرب -حسب باشلار- في حاجة إلى أن يستدل، كما أن العالم الذي يستدل في حاجة دائما إلى أن يجرب. وهذا ما أدى به إلى الاستنتاج بأن الفكر العلمي المعاصر يتميز بالربط الوثيق بين النزعة التجريبية والنزعة العقلية، فالأولى في حاجة إلى أن تعقل

والثانية في حاجة إلى التجربة والتطبيق، ومن هنا تصبح العقلانية التي يدعو إليها باشلار
عقلانية مطبقة.

المحاضرة الثالثة: الإبتيمولوجيا المعاصرة عند توماس كوهن

تمهيد:

إن تطور الإبتيمولوجيا المعاصرة لم يبقها في أحضان باشلار وبوبر رغم أهمية مساهمة الإثنين، والمهم على صعيد هذه الدراسات الهامة هو ظهور مساهمات لم تؤكد أهمية العلم فحسب، بل أنه لا يمكن لهذا العلم أن يزداد تقدمه بدون دراسات نقدية تسمح له باكتشاف ضفاف أخرى كانت محجوبة في وقت سابق، كما أكدت ازدياد صلة التكامل بين الفلسفة والعلم وبالتالي من خلال هذا تستطيع البشرية حل كثير من مشاكلها.

- علاقة العلم بتاريخه :

- يعتبر كتاب "بنية الثورات العلمية" لكوهن من أهم الكتب التي عرفها القرن العشرين، وأهمية لها جانبان: الأول انتشار الكتاب في الأوساط غير المتخصصة، والثاني هو أنه قدم إبتيمولوجيا جديدة شكلت في بعض جوانبها انتقادا للعملاق كارل بوبر.
- من المسائل التي يؤكد عليها كوهن منذ بداية الكتاب هي أهمية تاريخ العلم بالنسبة لأي خطاب نقدي حول العلم، «التاريخ، إذا نظرنا إليه باعتباره شيئا آخر أكثر من الحكايات وسير أحداث الزمان في تتابع الأحقاب، يمكن أن يؤدي إلستحول حاسم في صورة العلم التي نعيش أسرى لها الآن ، وهذا يعني أن جهل الحالة التي كان عليها العلم في الماضي قد لا يساعد على حل مسائل علمية راهنة.
- ويؤكد بأن الفروق بين القرنين التاسع عشر والعشرون كثيرة ومذهلة، لأن أركان اليقين والإيمان بالمطلقات المعرفية أنهار انهيارا كاملا مع ظهور فيزياء جديدة لم تكن محل إجماع منذ الوهلة الأولى، كما تغير دلالة كثيرا من المفاهيم التي اعتبرت ثابتة ففيزياء أنشطاين غيرت مفهوم الزمان والمكان والمادة. فالأهمية التي يلها توماس كوهن لتاريخ العلم ناشئة في اعتقاده أنه يبين لنا المسار الحقيقي الذي عرفه تطور العلم، من هنا نفهم لما خصص الفصل الأول من كتابه لتاريخ العلم*. والموقف الذب اتخذه إزاء تاريخ العلم كما يدرس يكشف بأن كوهن يريد أن ينظر إلى تاريخ العلم نظرة أخرى. و من العيوب الأساسية التي يتضمنها تاريخ العلم المؤلف هي أنه يقر دون برهان تاريخ على التراكمية والاتصالية بالنسبة لظهور وتطور العلم بحيث نقع حتما في تناقض لو أخذنا

مفهوم العلم كما يعرضه علينا تاريخه. انطلاقاً من هذا التأكيد الأولي يفند النظرية الاتصالية – التراكمية التي تقول بأن تاريخ العلم هو انتقال من حقيقة لأخرى، وعليه ليس العلم سوى سلسلة طويلة من الإبداعات والاكتشافات الصحيحة، بهذا المنظور تكون في نظر كوهن فيزياء أرسطو مساوية في الصدق لفيزياء نيوتن وغاليلي، وهذا ما لا يقبله حتى تلميذ في الابتدائي

- توماس كوهن و"بنية الثورات العلمية"

- يعتبر كتاب "بنية الثورات العلمية" لكوهن من أهم الكتب التي عرفها القرن العشرين، وأهمية لها جانبان: الأول انتشار الكتاب في الأوساط غير المتخصصة، والثاني هو أنه قدم ابستمولوجيا جديدة شكلت في بعض جوانبها انتقاداً للعلاق كارل

ومن المسائل التي يؤكد عليها كوهن منذ بداية الكتاب هي أهمية تاريخ العلم بالنسبة لأي خطاب نقدي حول العلم، «التاريخ، إذا نظرنا إليه باعتباره شيئاً آخر أكثر من الحكايات وسير أحداث الزمان في تتابع الأحقاب، يمكن أن يؤدي إلى تحول حاسم في صورة العلم التي نعيش أسرى لها الآن» وهذا يعني أن جهل الحالة التي كان عليها العلم في الماضي قد لا يساعد على حل مسائل علمية راهنة ويؤكد بأن الفروق بين القرنين التاسع عشر والعشرون كثيرة ومذهلة، لأن أركان اليقين والإيمان بالمطلقات المعرفية أنهارا كاملاً مع ظهور فيزياء جديدة لم تكن محل إجماع منذ الوهلة الأولى، كما تغير دلالة كثيراً من المفاهيم التي اعتبرت ثابتة فيزياء أنشطتين غيرت مفهوم الزمان والمكان والمادة .

أما بالنسبة لمسار تطور العلم، فإن عنوان الكتاب يبين جانباً منه وهو أن ظهور أي نظرية علمية جديدة تشكل ثورة على ما كان سائداً في الماضي. وبمعنى أدق فإن كوهن يميز بين العلم العادي الذي يمارسه الباحثون كل في مجال تخصصه، والعلم الشاذ الذي يعده علما في إطار الظهور والتكوين، والثورة التي تحدث في العلم لا تحدث نتيجة أسباب وعوامل خارجة عن العلم العادي، بل أنها تحدث من كنه هذا العلم ذاته.